كيف اختار المنصور موقع بغداد

دالت دولة الامويين وقامت على أثرها دولة بنى العباس تسندها كواهل الفرس وتؤيدها سيوفهم ، وكان لابد للدولة الجديدة من عاصمة جديدة ، اذ يرى المتتبع لتاريخ العرب ان تغيير العاصمة لابد منه عندما تتولى الحكم اسرة جديدة ، ففى بدء الاسلام هاجر النبى (ص) من مكة واتخذ يثرب مقراً له فانتقل بذلك المركز السياسى لجزيرة العرب من مكة المدينة التجارية القديمة الى يثرب التى سميت بعد مدينة الرسول ، والتى أصبحت عاصمة الاسلام ومركز الحكومة ؛ وبقيت كذلك فى حياة النبى (ص) والخلفاء الراشدين الثلاثة من بعده ابى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم ؛ فلما آلت الخلافة الى على عليه السلام اتخذ الكوفة مقراً ، وحدث النزاع بينه وبين معاوية منافسه الذى مرت عليه عشرون سنة وهو أمير الشام . قد وطد فيها امره واسكن اقرباءه واتباعهم ، حتى اذا ما انتهى هذا النزاع بشهادة الامام وتنازل الحسن اصبحت دمشق حاضرة الاسلام ، وكان موقعها مناسبا لان تكون عاصمة حكومة الامويين العربية ، فهى واقعة وسط إقليم خصب ، وهى قريبة من مكة والمدينة مركزى القوة الدينية كما أنها تقع على تخوم الصحراء العربية التى يتخذ الخلفاء من سكانها جنوداً يها جمون بلاد الروم القريبة من دمشق ايضا ، ولم يكن يقلل من أهمية موقع دمشق انها لم تكن واقعة على نهر صالح للملاحة ، لأن تجارة المسلمين كانت حينذاك بسيطة تتبع طرق القوافل وتحمل على الابل

واذا ما صلحت دمشق لان تكون حاضرة الامويين ، فانها لا تصلح أن تكون حاضرة بنى العباس ، فهى مأهولة بأتباع الأمويين ومناصريهم وهى بعيدة عن بلاد فارس ، مصدر قوة العباسيين ودعامة ملكهم ، وفضلا عن ذلك فقد أصبحت مهددة بالروم الذين اغتنموا فرصة ضعف الأمويين ، فأخذوا يشنون الغارة تلو الغارة ، كى يثاروا لاندحارهم القديم ، فالعاصمة الجديدة إذن يجب ان تتجه نحو الشرق قريبة من بلاد فارس ، ثم إن التبسط التجارى يقضى ان تكون على ماء يصلها بالبحر ومن هذا تعين أن يكون موقعها إما على الفرات وإما على دجلة ، حيث لم يتردد العباسيون ان يجعلوها هناك .

لما انتهى السفاح من حروبه ومذابحه أتى الهاشمية بجوار الانبار المدينة الفارسية القديمة ، واتخذها مقراً له وتقع هذه الهاشمية على ضفة الفرات الشرقية ، حيث يتفرع منه النهر الكبير الذى عرف فيما بعد باسم نهر عيسى ؛ وفيها توفى السفاح سنة ١٣٦ هجرية . وبعد قليل من تبوء المنصور كرسى الخلافة شرع فى بناء مقر له سمى بنفس الاسم ، وتقع هذه الهاشمية الثانية بين الكوفة والحيرة على الجانب الغربى من الفرات ، فى محل لا يبعد كثيراً عن البطائح ، مصب الفرات فى القرن العاشر الميلادى وتقول رواية أخرى انها كانت قرب مدينة ابن هبيرة القريبة من الكوفة . ومدينة ابن هبيرة هذه هى غير قصر ابن هبيرة . لم يكن موقع الهاشمية الثانيه مناسباً ليكون عاصمة بنى العباس لقربها من الكوفة مركز شيعة العلويين ولأن القبائل التى تقطنها كانت لا تفتأ تثور وتشاغب ، وقد تركها المنصور بعد ثورة الراوندية الذين تظاهروا بتقديسه وكادوا يفتكون به .

وإذا ما انتقلت العاصمة الى العراق فمن الواضح ان فائدة بقعة على دجلة خير منها على الفرات لانها تكون وسط إقليم خصب فقد كانت مياه الفرات تسقى الارض التى بينه وبين دجلة كما كانت مياه هذا الاخير تروى الارض الواقعة شرقيه ، وفضلا عن ذلك فان القسم الأسفل من دجلة كان أصلح للملاحة من الفرات .

وقد قام المنصور برحلات عدة للتفتيش على موقع لائق بالعاصمة فسافر من حرجايا الى الموصل ، متبعاً شاطىء دجلة ووقع اختياره أولا على موقع قرب باريما جنوب الموصل عند الموقع الذى يعرف اليوم باسم الفتحة ، حيث يقطع نهر دجلة جبال حمرين ولكنه تركه حين علم بغلاء الميرة وقلتها فيه وأخيرا اختار قرية بغداد الفارسية الواقعة ، على ضفة دجلة الغربية ، شمال مصب نهر الصراة تماما وأسس فيها عاصمته الجديدة سنة ١٤٥ للهجرة (٧٦٢ للميلاد) .

ويظهر من الاستكشافات التى قام بها السير هنرى رولنصن سنة ١٨٤٨ للميلاد انه قد كان فى هذا المحل مدينة من المدن القديمة جداً فقد وجد آجراً مكتوبا عليه سم بختنصر ولقبه ، كما وجد فى خرائط الأشوريين الجغرافية اسما لمدينة يقرب من اسم بغداد .

وقد كانت تقام فى قرية بغداد الفارسية أثناء حكم الساسانيين سوق شهرية اشتهرت كثيراً فى صدر الاسلام ، إذ هاجمها المسلمون سنة ١٣ للهجرة وغنموا كثيراً من الذهب والفضة ثم لم يعد يظهر اسم بغداد فى التاريخ حتى سنة ١٤٥ للهجرة حين أخذ المنصور يفتش عن موقع لعاصمته الجديدة ، وقد كان فى هذا الموقع لذلك الحين عدد من الأديرة وخاصة أديرة الرهبان النسطوريين ، ومنهم عرف المنصور خلو هذا المحل من البعوض الذى يكثر فى المحلات الأخرى من دجلة ، وأن لياليه بهجة بلردة حتى فى الصيف وكانت هذه المميزات بلا

شك مما أغرى المنصور على اختيار هذا المكان موقعا لعاصمته .

وقد أطنب مؤرخو العرب وجغرافيوهم في الكلام عن فوائد موقع بغداد المتعددة ، فيذكر لنا المقدسي مثلا أن الخليفة اتصح بقول ساكني هذا المحل ، ولخص في الأسطر التالية الكلام الذي خوطب به المنصور ، الذي أرى يا أمير المؤمنين أن تنزل أربعة طساسيج (مقاطعات) في الجانب الغربي طسوجان ، وهما قطربل وبادرايا ، وفي الجانب الشرقي طسوجان ، وهما نهر بوق وكلواذى فأنت تكون بين نخيل وقرب الماء . فان أجدب طسوج وتأخرت عمارته ، كان في الطسوج الآخر العمارات ، وأنت يا أمير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة في السفن من المغرب في الفرات ، وتجيئك طرائف مصر والشام ، وتجيئك الميرة في السفن من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من أرمنية وما اتصل بها في تامرا حتى تصل الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة ، وأنت بين أنهار لا يصل اليك عدوك إلا على جسر أو قنطرة ، فاذا قطعت الجسر وخربت القناطر لم يصل إليك عدوك ، وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك أحد من المشرق والمغرب الا احتاج الى العبور ، وأنت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل ، إن التبصر الذي أظهره الخليفة المنصور في اختيار موقع بغداد يظهر جليا في تاريخ بغداد الأخير ، فقد توسعت هذه المدينة توسعا كبيراً حتى كانت المدينة الثانية بعد القسطنطينية في العصور الوسطى ولم يكن لها نظير في جلالها وعمرانها بين مدن آسيا الغربية ، ولم تستطع الحروب والحصارات وانتقال الخلافة منها الى سامراء ، وحتى تخريب المغول لها ، كل هذه لم تستطع أن تحط من مركز بغداد وكونها عاصمة ما بين النهرين ، فاتخذها الاتراك مقراً لهم ، والآن بعد أن مر عليها أحد عشر قرنا ، أصبحت عاصمة الحكومة العراقية .

سليم محمود الاعظمي

من صور الحياة

صديق . . .

الى تلك النفس الظلوم

قلبي الساعة مجال لصراع عنيف بين عاطفة من الحب والوفاء ، وعاصفة من شيء يشبه المقت وأنا بينهما حائر مضطرب :

لي صديق لا يزال حيا ، ومع ذلك فانا أميل الى الاعتقاد بانه مات ، لأني كفنته في أثواب الاهمال ، ودفنته في زوايا النسيان . ولأن إباءه قضى ، ووفاءه مضى ، وليس بعد فقد الاباء والوفاء معنى للحياة

إذن مات صديقي بالنسبة لي على الأقل . ولكنه أورثني فيما خلف لي من تركته المثقلة بالهم ، جروحا لا يزال الدم يقطر منها . ولكم وددت لو أن الايام عقدت حول اسمه ورسمه ، سجا من النسيان لا ينفذ اليها شعاع من الذكرى ، وطالما جاهدت نفسي في أن أجعل بيني وبينه من التناسي أستارا صفيقة ، وأسوارا منيعة ، فلا يسعى إلي ولا أصل اليه ، فلم أوفق ، ولا تزال ذكراه تلم بي وتحوم حولي ، ولا أزال أتردد على رسائله وصوره كما يتردد العابد إلى محرابه ولقد يتفق لي أحيانا ان أصادف هذا الصديق الميت الحي ، فأقف أمامه ، مضطرب العاطفة إنه يشبه صديقي في جماع شكله ، إلا ان صديقي كان صفي النفس وفي القلب نقي الضمير ، وليس هذا الانسان من تلك الصفات في قليل ولا كثير ! لقد اتممت اليوم قراءة الصفحة الثانية بعد العشرين من كتاب حياتي ، وعاشرت الناس بقدر ما اتفق لي أخيارا واشرارا فلم أر شيئا أوقع في النفس من خيانة الصديق ، وكنت ولا أزال أحتقر نوعا من الصحاب يصادقون شهرا ويناقضون دهرا ، ثم يتقلصون أخيرا عن الصاحب فاذا هو عندهم منكر الطلعة كان لم يكن بينهما من أسباب الود القديم ما يربط أحدهما بالآخر . . . وصديقي من صميم هذا النوع . قطعت معه في طريق الحياة أشواطا لم يقف الأمر خلالها بيننا على ما يكون بين الصديق وصاحبه من المجاملة ، بل نشأ بيننا لون من الحب العميق الوثيق لم تعبث به الاغراض ، ولم تفسده الأعراض فأخلصت له كما يجب ان يخلص الصاحب ، لا أبتغي على ذلك جزاء ولا شكورا إلا أن يأخذ نفسه بشيء من الاخلاص ، فأعطاني على ذلك الموثق وأقسم جهد أيمانه ومضى يزعم أن شيئا في الوجود لا يستطيع العبث